تعليق على رسالة

حسن الخلق

للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه اللّه

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤١/٠٣/٢٩ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

يقول الشيخ العلّامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى في كلامه على حسن الخلق:

بسم الله الرحمن الرحيم

كم في الكتاب و السنة من النصوص الحاثّة على حسن الخلق، المثنية على أصحابه، الذّاكرة ما لهم من الفضائل و الفواضل، وذلك لما اشتملت عليه من الخلق الجميل، و ما يترتّب عليه من المنافع و المصالح العامة و الخاصة.

فمن أجلِّ فوائده: امتثال أمر الله و أمر رسوله ﷺ، و الِاقتداء بخلق النبي ﷺ العظيم. و أنه في نفسه عبادةٌ عظيمة تتناول من زمان العبد وقتًا طويلًا، و هو في راحةٍ و نعيمٍ مع حصول الأجر العظيم.

و من فوائده: أنه يحبّب صاحبه للقريب و البعيد، و يجعل العدو صديقاً، و البعيد قريباً، و به يتمكّن الداعي إلى الله تعالى و المُعلّم للخير من دعوته، و يجمع الخلق إليه بقلوبٍ راغبةٍ، و قبولٍ و استعدادٍ لوجود السبب و انتفاء المانع :{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُم و لَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِك} [آل عمران: ١٥٩]

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وأصلح لنا شأننا كله، لا إله إلا أنت.أما بعد:

فهذه رسالة مختصرة في باب الأخلاق من حيث فوائد الأخلاق، وآثارها العظيمة ومن حيث الطرق التي تحصّل بها الأخلاق الفاضلة، فإنّ هذه الرسالة مع وجازتها واختصارها حوت خيرًا عظيمًا وفوائد جليلةً في باب الأخلاق حثًّا عليها، وبيانًا لطرق اكتسابها وتحصيلها. ضُمّنت مجموعًا للشيخ طُبع بعنوان [الفتاوى السعدية] جاءت هذه الرسالة في ضمن هذا

المجموع الحافل، وبما أننا نستقبل عيدًا عظيمًا مباركًا، يحرص كثيرٌ منّا على تقديم العيدية في هذا العيد، فأنا أقترح أن تكون هذه الرسالة عيديةً ننشرها ونتداولها في هذا العيد المبارك إما ورقيًا أو إلكترونيًا، كلٌ يهدي منها ما تيسر لأقاربه وزوّاره وإخوانه ومحبّيه؛ لأن العيد نمو للأخلاق الفاضلة، وموطن للتآلف والتحاب وتنمية الأخلاق الكريمة العظيمة المباركة، وهذه الرسالة ما تأخذ وقتًا من قارئها ولا تكلّف عليه، لكنها تنفع نفعًا عظيمًا. وأسأل الله عزّ وجل أن يختم لنا جميعًا شهرنا المبارك بالعفو والغفران والعتق من النيران، وأن يغنّمنا خيرات هذا الشهر وبركاته، وأن يجعلنا ممن فاز فيه برضوان الله سبحانه وتعالى ومغفرته جلّ في علاه.

هذه الرسالة للإمام ابن سعدي رحمة الله عليه تركّزت على بابين في الأخلاق؛ الأول: ذكر فضائل الأخلاق وفوائدها وآثارها العظيمة على المسلم الخلوق في دنياه وأخراه، وفي معرفة فضائل الأخلاق تشويقٌ للمسلم للتحلّي بها والتزيّن بها؛ لأن الأخلاق هي الزينة والجمال، والأمر الثاني -الذي تركزت عليه هذه الرسالة-: بيان الأمور والوسائل المعينة على اكتساب الأخلاق الفاضلة. فهو شوّق أولًا للأخلاق ببيان فضائلها ثم وجه ثانيًا إلى طرق اكتساب الأخلاق وتحصيلها ونيلها.

ذكر رحمه الله تعالى في صدر هذه الرسالة المباركة أنّ النصوص الحاثّة على الأخلاق في الكتاب والسنة كثيرة، فكم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من النصوص الحاثّة على حسن الخلق، المثنية على أصحابه، الذاكرة ما لهم من الفضائل والكرامات والخيرات العديدة في الدنيا والآخرة.

ثم شرع رحمه الله في بيان شيء من فوائد الأخلاق وآثارها على المتخلّق بها، فذكر منها: أنّ تخلّق المسلم بالأخلاق الفاضلة لو لم يكن فيه إلا أنه ممتثل لأمر الله ومطيعٌ له، ومتّبع لرسوله عليه الصلاة والسلام لكفى به شرفًا ورفعةً، فهذا الامتثال لأمر الله وأمر رسوله ﷺ والاقتداء بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام، فإنه كان أتم الناس خلقًا وأكملهم أدبًا صلوات الله وسلامه عليه، وقد قال الله تعالى: **﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾**. أيضًا الخلق نفسه عبادة وقربة لله. يقول الشيخ رحمه الله: (وأنّه في نفسه عبادة عظيمة) فالخلق عبادة، ولهذا ينبغي على كل من يُكرمه الله

بالتخلّق بالأخلاق الفاضلة أن يقصد التعبّد، والتقرّب إلى الله؛ لأن الخلق الفاضل لا يدخل في صالح عمل المرء الذي ينال عليه الثواب عند الله إلا إذا قصد به التقرّب إلى الله، ونوى هذه النية. كما قال عليه الصلاة والسلام:" **إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى** ". ولهذا ينبغي على المسلم أن يستحضر هذه المعنى الجليل، أن الخلق الفاضل عبادةً وقربةً يتقرّب بها إلى الله سبحانه وتعالى، ويرجو عظيم موعوده، وقد سُئل عليه الصلاة والسلام عن أعظم ما يدخل به الناس الجنة قال:" **تقوى الله وحسن الخلق** ".

وذكر رحمه الله من فوائد حسن الخلق وهي فائدة عجيبة وعظيمة أنّ حَسَن الخلق في راحة، ومفهوم ذلك: أنّ سيء الخلق مفارقٌ للراحة. الأخلاق الفاسدة لا تجلب راحةً لصاحبها بل تجلب له عناءً وشقاءً ونكدًا، ولهذا يؤثر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: " لا راحة لحسود ". الحسود ما يمكن أن يرتاح وما يمكن أن تقر له عين، كيف تقر له عين وقلبه كل ما رأت نعمةً في الآخرين أخذ يغلي حسدًا، بينما الخلوق في راحة وهذه الراحة نعمةٌ معجّلة.

قال: (ومن فوائده أنه يحبّب صاحبه للقريب والبعيد). وهذا أيضًا من فوائد حسن الخلق أنه يحبِّب المرء الخلوق للناس يحبونه ويألفونه، بخلاف سيء الخلق فإنه غير محبوب للناس. ولهذا في كلمة علي المتقدمة رضي الله عنه قال: " لا راحة لحسود، ولا محبة لسيء الخلق " سيء الخلق، لسوء خلقه الناس تنفر منه ولا تحبّه، بينما الخلوق أخلاقه الفاضلة تجذب قلوب الناس إليه، وتحببّهم إليه.

فمن فوائد حسن الخلق أنه يحبب صاحبه للقريب والبعيد، ويجعل العدوّ صديقًا والبعيد قريبًا. اقرأ في هذا قول الله سبحانه وتعالى: { **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** } يعني: كأنه صديقٌ من أعزّ الأصدقاء. قال: ادفع بالتي هي أحسن، الدفع بالتي هي أحسن هذا خلقٌ رفيع، من الذي يقوى عليه في الشدائد، وفي الصدمات، وفي الأزمات وفي المواقف الصعبة، من هذا الذي يستطيع أن يدفع بالتي هي أحسن.{ **وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** }. فهذا من فوائد الخلق العظيمة.

أيضًا في باب الدعوة إلى الله والتعليم، ونصح الناس وإرشادهم، يتمكّن المرء بالخُلق الفاضل أن يوصل إلى قلوبهم الخير؛ لأن المتحّدث والواعظ والناصح والخطيب إذا كان سيء خلقٍ فإن سوء خلقه يحول بين قلوب الناس وقبول دعوته، حتى وإن كان الذي يقوله حقٌّ وجميلٌ ونصحٌ، لكن سوء الخلق يعكّر صفو التلقي. وقد قال الله سبحانه لنبيه:{ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** }. الغلظة تسبب نُفرة وعدم ارتياح، ولهذا في باب التعليم والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، حسن الخلق يساعد على انتشارها.

هناك أمر مؤسف. كثير من البدع والضلالات نفّقها وروّجها أصحابها بالخلق، يعامل الناس بأخلاق جميلة طيبة حسنة، يقف معهم، يعطف عليهم ثم يدسّ بدعته، كلٌّ ينفق مما عنده، وكل إناء بالذي فيه ينضح فكم رُوّجت بدع، وأهل الحق أولى وأجدر أن يكونوا في نشرهم ودعوتهم للحق ونشرهم للسنة متحلّين بالأخلاق الفاضلة الكريمة حتى ترتاح النفوس وتطمئن إليهم، وترتاح لسماعهم، فالخلق الفاضل مساعد قوي جدًا في نشر الدعوة ونفع الناس. يقول الشيخ: وبه يتمكن الداعي إلى الله تعالى والمعلم للخير من دعوته، ويجمع الخلق إليه بقلوب راغبة وقبول واستعدادٍ لوجود السبب وانتفاء المانع. ومن أعظم الأسباب: حسن الخلق، ومن أعظم الموانع: سوء الخلق والغلظة والفضاضة.

قال رحمه الله: و هو بنفسه إحسانٌ قد يزيد على الإحسان المالي " إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم، و لكن ليسعهم منكم حسن الخلق " فمتى اجتمع الأمران فهو الكمال، و متى فُقِد الإحسان المالي ناب عنه حسن الخلق و الإحسان الحالي و المَقالي، فربما صار له موقعٌ أكبر من نفع المال.

الإحسان كما هو واضح في عرض الشيخ رحمه الله نوعان: إحسانٌ بالمال، وإحسانٌ بالتعامل، بالخلق، باللطف، باللين، هذا جانب عظيم مهم في باب الإحسان، فالخلق هو بنفسه إحسان، مَن تُعامله بالأخلاق الفاضلة أنت تُحسن إليه، إحسانًا عظيمًا وإحسانك إليه هو صدقةً منك " **الكلمة الطيبة صدقة** "، فإحسانك إليه باللطف، بالبشاشة، بحسن الكلام، بالمعاملة الطيبة، بالبعد عن الفضاضة والغلظة، هذا الخلق هو بحدّ ذاته إحسان، هو بنفسه

إحسانٌ قد يزيد على الإحسان المالي. ولهذا بعض الأشخاص قد يقصد شخصًا في حاجةٍ مالية فيقدّم له من أتاه اعتذارًا لطيفًا يكون أوقع في قلبه من المال لو أعطاه إياه، في قوة اللطف وجمال الخلق وحسن الاعتذار، وبالمقابل قد يأتي شخصٌ إلى آخر في حاجة فيعطيه المال لكن بنفسٍ سيئة، فربما أخذه، وربما ردّه، وربما اضطر إليه اضطرارًا مع كراهيته لليد التي مدّت المال بهذه الفضاضة. ولهذا الشيخ يقول: (قد يفوق الإحسان المالي) وقد يغني عنه، يعوّض عنه، واستشهد لذلك بحديث " **إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم، و لكن ليسعهم منكم حسن الخلق** ".

قال رحمه الله: و بالخلق الحسن و طمأنينة القلب و راحته يتمكن من معرفة العلوم التي سعى لإدراكها، و المعارف التي يفكر في تحصيلها. و به يتمكن المناظر و المخاصم من إبداء حجّته، و فهم حجة صاحبه و يسترشد بذلك إلى الصواب قولًا و عملاً، و كما أنه سبب لهذين الأمرين في نفسه، فهو من أقوى الدّواعي لحصولهما لمن خاصمه أو ناظره " إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف".

يقول الشيخ: (بالخلق الحسن) الخلق منه ما يتعلّق بالقلب، مثل: الصبر، الحلم، الأناة، عدم العجلة، ترك الملل والضجر، فهذه الأخلاق الفاضلة –مثل ما ذكر الشيخ– يتمكّن من خلالها التوسع في العلوم والمعارف، بينما إذا كان ملولًا غير صبور فإنه لا يتمكّن من العلم؛ لأن ملله وقلّة صبره يعوقه عن ذلك، فلا يستطيع الملول مؤاخاة طلاب العلم في جلدهم وصبرهم على العلم وتحصيله، ولهذا في كلمة علي بن أبي طالب رضي الله عنه – التي أشرت إليها – له فيها أيضًا ثالثة قال: " ولا إخاء لملول " فالملول يملّ عند أدنى شيء؛ سواء في صحبة الإخوان أو في طلب العلم وتحصيله، يملّ فينقطع. فإذن الخلق الصبر والأناة والحلم وعدم العجلة يساعد على التعلّم والفهم. أيضًا في باب المناظرات إذا لم يكن عنده حسن خلق، فإن ما فيه من ضيق العطن والانفعال الشديد يعوق بينه وبين إيصال ما عنده من الفائدة للآخرين، ويعوق أيضًا– مثل ما أشار الشيخ– من قبول الخصم أو المخالف للحق الذي عنده إذا كان لا يتعامل بالأخلاق الفاضلة. فإن هذا يعوق استفادة الطرف الآخر مما عنده من خير.

قال: وبالخلق الحسن يسلم العبد من مضارّ العجلة و الطيش لرزانته و صبره و نظره لكل ما يمكن من الاحتمالات، و تجنُّب ما يُخشى ضرره.

وهذه فائدة عظيمة جدًا لحسن الخلق، أنه يقيه من المضار؛ لأنّ العجلة والطيش والتسرّع والاندفاع مضارّها عظيمة وجناياتها كثيرة؛ سواء في مصالح المرء الدينية أو مصالحه الدنيوية. يقول ابن مسعود: " إنها ستكون أمور مشتبهات فعليكم بالأناة، فإنك أن تكون تابعًا في الخير خيرٌ من أن تكون رأسًا في الشر ". لو أن الإنسان في فتنة من الفتن تعجّل، وقرر قرارًا، وأبدى رأيًا، وانتصر له، وصار له أتباع في ذلك الرأي وهو على باطل أصبح إمامًا في الشر بسبب عجلته واندفاعه وتسرّعه، لكن الأناة، الحلم، الهدوء، الرويّة، بُعد النظر، التأمل في عواقب الأمور هذه الأخلاق الكريمة تقي الإنسان من مضارّ العجلة والطيش.

وبالخلق الحسن يتمكن من الوفاء بالحقوق الواجبة و المستحبة للأهل و الأولاد و الأقارب و الأصحاب و الجيران و المعامَلِين و سائر من بينه و بينهم مخالطةً أو حقّ، فكم من حقوقٍ أُضيعت من جرّاء سوء الخلق.

الخلق وسعة الصدر يساعد المرء على القيام بالحقوق الواجبة، بينما الرعونة والفضاضة وسوء الخلق يعوق المرء إعاقةً شديدة عن أداء هذه الحقوق، فكم ضُيّعت من حقوق بسبب سوء خلق المرء.

وإنّ حُسن الخلق ليدعو إلى صفة الإنصاف، فإن صاحب الخلق الحسن يَسلم غالبًا من الانتصار لنفسه و التعصّب لقوله، لأن الانتصار للنفس و التعصب يحمِل على الاعتساف و عدم الإنصاف.

وهذه فائدة، الخلق الحسن يحمل صاحبه على الإنصاف مع الآخرين، والعدل لما يتمتع به من أخلاقٍ فاضلةٍ كريمةٍ، فإنّ الخلق الحسن يمنع صاحبه من الانتصار للنفس كيفما كان، بل يكون منتصرًا للحق، ليّنًا في التعامل، رفيقًا مع الناس.

وإنّ صاحب الخلق الحسن في راحةٍ حاضرةٍ و نعيمٍ عاجل، فإنّ قلبه مطمئنّ و نفسه ساكنة، و هذا مادة الراحة العاجلة و طيب العيش، كما أنّ سيئ الخلق في شقاءٍ حاضرٍ، و

عذابٍ مستمرٍ، و نزاعٍ ظاهري و باطني مع نفسه و أولاده و مخالطيه، يشوّش عليه حياته و يكدر أوقاته مع ما يترتّب على ذلك من فوات تلك الآثار الطيّبة و التعرّض لضدها، و بهذا و نحوه يتبين معنى قوله صلى الله عليه و سلم: " إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ".

هذا حديثٌ عظيمٌ جدًا في بيان فضل حسن الخلق، وهو حديث صحيح ثابت عن نبينا عليه الصلاة والسلام " **إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم** " وهذا يدل على مكانة الخلق في الإسلام ومنزلته العليّة، وفضله وثوابه العظيم عند الله سبحانه وتعالى، وأنّ صاحب الخلق الحسن يفوز به عند الله بالمراتب العالية، والمنازل الرفيعة في الجنة.

فإن قلت: إذا كان حسن الخلق له هذه الفضائل و الآثار الحسنة، فهل للاتصاف به أسباب يتمكّن العبد من فعلها؟ أو هو مجرّد موهبة؟

الشيخ رحمة الله عليه فيما تقدّم شوّق لحسن الخلق ببعض فضائله وفوائده وآثاره. فلما اشتاقت القلوب لأن تكون من أهل هذا الخلق الحسن شرع رحمه الله في بيان الأسباب التي تعين المرء على حسن الخلق، وهذا جانب مهم يحتاج أن يقف عليه المسلم حتى تكون هذه الأشياء التي يذكر رحمه الله تعالى روافد له تعينه على التحلي بالأخلاق الفاضلة الكريمة، وقد ذكر حقيقةً كلامًا عظيمًا جدًا في وسائل تحصيل واكتساب الأخلاق الفاضلة.

قلت: ما من صفةٍ حميدةٍ ظاهرةٍ أو باطنةٍ إلا و قد يسّر الله للعبد حصولها، و نهّج الطرق الموصلة إليها، و أعان عليها بكل وسيلة، و كلما كملت الصفات كثرت الطرق المفضية إليها، مع أنّ الغرائز و الطبائع الأصلية أعظم عونٍ عليها، و صاحبها إذا سعى أدنى سعيٍ أدرك مراده.

لا يمكن أن يكون الله جلّ في علاه يحثّ على الخلق الفاضل ويرتّب أيضًا عليه الثواب العظيم والفضل الجزيل ويكون الوصول إليه متعذّر أو غير ممكن أو الطريق إليه ليس سهلًا، فالله عزّ وجلّ لما حثّ عباده على الأخلاق الفاضلة الحميدة الظاهرة والباطنة يسّرها للعباد، ونهّج الطرق الموصولة إليها، وأعان عليها بكلّ وسيلة، ويكفي في هذا قول النبي عليه الصلاة

والسلام:" **إنما العلم بالتعلّم، وإنما الحلم بالتحلّم، ومن يتحرّ الخير يعطه، ومن يتوقّ الشر يوقه** " والله جلّ وعلا يقول: **{ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ }**.

ثم تأمّل قول الشيخ رحمة الله عليه: (كلما كملت الصفات كثرت الطرق المفضية إليها). وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى، فالخلق من الصفات الكاملة العظيمة الفاضلة ولهذا وسائل تحصيله واكتسابه متيسرة ويسيرة -بإذن الله تبارك وتعالى- على من يسرها الله عليه.

قال رحمه الله: فاعلم أنّ من أعظم ما يعين على هذا الخلق الجميل التفكّر في الآثار السابقة المترتبة عليه، فإنّ معرفة ثمرات الأشياء و حسن عواقبها من أكبر الدواعي إلى فعلها و السعي إليها، و إن عظُم الأمر و اعترضت الصعوبات، فإن المرارات إذا أفضت إلى ضدها هانت و حلَت، و كلما تصعّبت النفس عليه ذكَّرها تلك الآثار و ما تجتني بالصبر من الثمار، فإنها تلين وتنقاد طائعة منشرحة الصدر محتسبة راجيةً حصول تلك المطالب.

هذا الأمر الأول فيما يعين على التحلّي بالأخلاق الفاضلة أن يحرص المسلم على القراءة في فضائل الأخلاق، وفضائل الآداب، وما يترتب عليها من الأجور والثواب عند الله سبحانه وتعالى، يقرأ في ذلك ما كتبه أهل العلم من المختصرات وأيضًا من المطولات، ومن أحسنها وأوفاها وأجمعها كتاب [الأدب المفرد] للإمام البخاري في مجلّدٍ كبير. فالقراءة في هذه الكتب بحيث يقف المسلم على فضل الخلق وثماره وآثاره، سواءً في فضل الخلق عمومًا أو في الفضائل الخاصة بكل خلق؛ لأن الصبر له فضائل، الحلم له فضائل، العفّة لها فضائل، الكرم له فضائل وهكذا، فهناك فضائل تجمع الأخلاق كلها، وهناك فضائل أيضًا لأفراد الأخلاق وأنواعه، فيحرص المسلم على أن يقرأ وأن يقف على فضائل الخلق؛ لأن هذه الفضائل كلما أعادها على نفسه تشوّقت نفسه إلى التحلّي بهذه الأخلاق، وإذا واجهته مرارات في بدايات تحلّيه بالأخلاق الفاضلة يُذهب هذه المرارات بفضائل الأخلاق حتى تعظُم النفس شوقًا للتحلّي بالأخلاق والتمسك بها.

قال رحمه الله: و من أعظم الأسباب علوّ الهمة، و رغبة العبد في مكارم الأخلاق، و أنها أولى ما اكتسبته النفوس، و أجلّ غنيمة غنمها الموفقون فبحسب قوة رغبته في ذلك يسهل عليه نيل هذا الخلق الجميل.

هذا أيضًا من الأسباب: أن ينهض المرء بهمته، بأن تكون همّته عالية وشريفة ورفيعة، وفي الدعاء المأثور عن نبينا عليه الصلاة والسلام:" **اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد** " فعلوّ الهمة بأن يكون عنده عزيمةً قوية؛ لأن ضعف الهمّة وضعف العزيمة يثني المرء عن التحلي بالأخلاق، فقد يسمع بها تعجبه يرى أنها جميلة لكن عزيمته فاترة وهمته ضعيفة، فعلوّ الهمة وقوة العزيمة والمجاهدة للنفس يبلغ به المرء بإذن الله سبحانه وتعالى التحلّي بالأخلاق الفاضلة.

و من الأسباب أن يتأمّل هل يجلب له سوء الخلق إلا الأسف الدائم، و الهمّ الملازم و الآثار القبيحة، فَيربأُ بنفسه عن هذا الخلق الذميم.

هذا أيضًا باب آخر مهم يعين على التحلي بالأخلاق الفاضلة: أن ينظر المرء سواءً في نفسه هو إن كان عنده سوء خلق أو في الآخرين، أيّ شيء جرّ عليهم سوء خلقهم، وكم من الأمور والمضارّ التي ترتبت على سوء الخلق، فيربأ بنفسه أن يكون سيء الخلق. فإذن كما أنه يحتاج إلى قراءة في فضائل الأخلاق حتى يتحلّى بها، يحتاج أيضًا إلى نظر في مساوئ الأخلاق ومضارّها حتى يتجنبها. فهو يحتاج إلى هذا وهذا. يحتاج إلى معرفة بفضائل الأخلاق للتحلّي، ومعرفة بمساوئ الأخلاق ومضارها للتخلي عنها وتركها والبعد عنها. وفي الدعاء المأثور: " **اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت** ".

أشير إلى أمرين من الأمور المعينة على التحلّي بالأخلاق: صحبة الأخيار، صحبة أهل الأخلاق الفاضلة، وإلزام النفس بمرافقتهم حتى يأخذ من أخلاقهم، ويتأدّب بآدابهم، فيصحبهم، يصحب الحاضرين مرافقةً لهم، ويصحب الأموات قراءةً لسيرتهم، ولهذا كم هو نافعٌ جدًا أن تقرأ في سير الصحابة، في سير التابعين، في سير أتباع التابعين، في سير أئمة الهدى، تقرأ في سيرهم وأخلاقهم فهذه القراءة في سير هؤلاء معينة جدًا على الأخلاق.

وقد قيل: كرّر عليّ حديثهم يا حادي فحديثهم يجلو الفؤاد الصادي.

فعلًا عندما يقرأ في سير الأئمة والأعلام والصحابة والتابعين، سير الأنبياء قبل ذلك هذا من أعظم الأمور التي تعين على التحلّي بالأخلاق الفاضلة.

الأمر الآخر وهو مهم جدًا: الدعاء الدعاء، لا يمكن أن تتحلّى بخلقٍ إلا إذا أعانك الله عليه، ولا يمكن أن تتصف بأي صفة فاضلة إلا إذا يسّرها الله سبحانه وتعالى لك، ولهذا يفزع المرء دائمًا إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء أن يعينه على الأخلاق الكريمة الفاضلة، وأن يعيذه من سيئها، وفي الدعاء المأثور:" **اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء** ".

قال رحمه الله: و من الأسباب رياضة النفس و تمرينها على هذا الخلق، و توطينها على كل سببٍ يُدرَك به هذا الخلق الفاضل، فيوطّنها على معارضات الأقوال، و أنه لا بدّ من مخالفتهم في العلوم و الإرادات، و لا بدّ أيضًا من أذيّة قولية أو فعلية، فليتوطن على تحمّل الأذى، و ليعلم أن الأذى القولي لا يضرّ إلا من قاله. و إنّ من الحزم و القوّة أن يكون الإنسان بحيث لا يتأثر بكلامٍ يُقصَد به إخفاضه وإغضابه، بل يعلم أنه إذا غضب أو تأثّر، فقد أعان المتكلم على نفسه، و إن لم يبالِ به و لم يلقه باله و لم يهتم به و يكترث به فقد قابل القائل بما يكرهه؛ لأنّ جُلّ مقصد عدوه إيلام قلبه و إدخال الهمّ و الغمّ و الخوف على قلبه فكما يسعى بدفع ما يريد إيلام ظاهره، فليسعَ بدفع ما يريد إيلام باطنه بترك الاهتمام به.

هذا أيضًا أمر مهم في الأمور المعينة على اكتساب الأخلاق الفاضلة: رياضة النفس وتمرينها، فالنفس تحتاج إلى تمرين، مثل ما إن المرء إذا كان ضعيف البدن وأخذ يمرّن نفسه بالرياضات المعروفة المشي ونحو ذلك، كيف أنّ بدنه يقوى بهذه الرياضات بعد أن كان ضعيفًا، وبالإحسان بتغذية البدن، فكذلك الأخلاق بالرياضة وتمرين النفس تنمو، وإلى هذا المعنى تجد الإشارة في قول الله عزّ وجل: { **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا** } المجاهدة رياضة للنفس، وأيضًا قول النبي ﷺ:" **إنما العلم بالتعلّم، وإنما الحلم بالتحلّم** " فهذا المران للنفس والتدريب لها يُكسب المرء –بإذن الله سبحانه وتعالى– الأخلاق الفاضلة.

ومن النافع جدًا في هذا الباب، أن المرء إذا حصل له موقف من المواقف التي تُفقد فيها الأخلاق؛ لأن هناك مواقف حقيقة تفقد الأخلاق فيها، مواقف مزعجة مقلقة جدًا تفقد الأخلاق، كثير من الناس ما يصبح عنده سيطرة على خلقه ونفسه، يفقد الخلق، فكم هو نافع جدًا في مثل هذا الموقف أن يُدخل على نفسه شعورًا أنه في تمرين الآن مع نفسه. مثل شخص الآن في الرياضات المعروفة يدخل في تمرين من التمارين يهيئ نفسه، هنا الآن يُدخل نفسه في تمرين ويشعر نفسه أنه في تمرين الآن مع الأخلاق، ويبدأ يماشي نفسه بالهوينى يمرّنها، وهذا والله نافع جدًا؛ لأن النفس بحسب ما يُملي عليها، إما أن يقودها وإما أن تقوده، فإن قادته أهلكته، وإن قادها أخذها بإذن الله إلى الأمان والراحة والطمأنينة. فالأخلاق هذه في البداية تمرين وتدريب للنفس وفي نهاية الأمر سجيّة، في البداية في المواقف الصعبة يحتاج أن يتكلف، يُخرج من نفسه الخلق وبصعوبة ومجاهدة، إذا مرّ على هذا أصبح سجيّة ما يعرف أصلًا غيره، ولهذا تجد فيمن وفقهم الله سبحانه وتعالى للأخلاق العالية في المواقف الصعبة الشديدة يبرز، عادةً الأخلاق ما تبرز في اللقاءات المعتادة، يبرز منها نوع خلق، لكن المواقف الصعبة هي المحك التي يبرز فيها متانة خلق الإنسان، وقوة صبره، وقوة احتماله، وقوة دفعه بالتي هي أحسن.

ذكرت لكم مرة قصة عجيبة جدًا في هذا المجلس للشيخ صالح الحصيّن رحمه الله الذي كان رئيسًا للحرمين، يذكرها أحد مرافقيه في الحج، كان يمشي على قدميه من عرفات إلى مزدلفة وبدون أن يشعر وهو يمشي اصطدم بامرأة تدفع أخرى بعربية أمامها، اصطدم بها ما شعر، وكانت قوية تلك المرأة، فالتفتت إليه مباشرةً وشتمته وضربته ضربةً قوية على صدره فسقط الشيخ على قفاه، سقط على الأرض، يقول المحدّث الذي مع الشيخ: فقام الشيخ مبتسمًا ونظر إليّ وقال: الحمد لله أخذت حقّها في الدنيا. وما التفت إليها، هو أصلًا ما قصد أن يؤذي تلك المرأة. مثل هذه الأمور ما كل أحد يستطيع إليها، على الأقل يناقشها، على الأقل يلتفت إليها.

فالأخلاق في البداية تكون مران لكن في النهاية تكون سجيّة، في الموقف الصعب ما يبرز أصلًا إلا الخلق الحسن ومن يقرأ في سير السلف، ولعلّ طالب علم ينهض ويجمع هذه المواقف التي يبرز فيها الخلق، كثيرة جدًا في سير السلف، في مواقف صعبة ثم يجد الخلق الرفيع هو الذي يبرز فيها.

قال رحمه الله: و ما أنفع في هذا المقام و غيره أن يجعل الإنسان نصب عينيه و جُلّ مقصده الإبقاء على قلبه من المشوشات و الواردات المؤلمة، و أن يحفظ راحة قلبه بكل ما يفضي إلى الراحة من تحصيل الأسباب المريحة للقلب، و دفع كل معارض لها، فإن راحة القلب أصلُ طِيب العيش في هذه الدار.

الشيخ فيما سبق ذكر فائدة مهمة أن بعض الناس من طبعه يحب إيذاء الآخرين، يحب إثارة الآخرين، يحب إيلام الآخرين، يحب إخفاض الآخرين وانتقاصهم وازدراؤهم، موجود في الناس من هذا طبعه، فإذا بُلي المرء بأحد من هذا الصنف، فماذا عليه أن يفعل؟ يقول الشيخ: وإن من الحزم والقوة أن يكون الإنسان بحيث لا يتأثر بكلامٍ يُقصد به إخفاضه وإغضابه، بل يعلم أنه إذا غضب أو تأثّر أعان المتكلم؛ لأن هذا هو طلب المتكلم أن يغضبه ثم يخفضه ويحطّ من مكانته، فليس من الحكمة أن يُعين المرء المتكلم على نفسه في إخفاضه وانتقاصه بل يتحاشى الغضب، يتحاشى الرعونة، يتحاشى التسرّع والاندفاع، فهذا فيه صيانةً لنفسه، وفيه أيضًا عدم إعانة من أراد إيذاءه أو إخفاضه.

قال: و ما أنفع في هذا المقام و غيره أن يجعل الإنسان نصب عينيه وجُلّ مقصده الإبقاء على قلبه. يعني مرتاحًا بدون مشوشات وحفظ القلب في راحة ما يمكن إلا بالأخلاق الفاضلة، والبعد عن الأخلاق السيئة، ولا يمكن أن يحفظ راحة قلبه إلا بهذه الأخلاق الكريمة.

فلو كان الإنسان بكل نعيمٍ و توفرت لديه أسباب الراحة، و قلبه في قلقٍ و حرجٍ، لا يخرج من همٍ إلا وقع في آخر، و لا يفرح بموجودٍ و محبوبٍ إلا وجد حشو قلبه ما يكدره، فإنه حتى الآن لم يصل إلى المقصود الذي يسعى له أهل العقول الراقية، فإنهم يسعون أولًا لراحة قلوبهم و طمأنينتها بالإنابة إلى الله في مهمّاتهم و ملمّاتهم و أحوالهم كلها، و يتممّون ذلك بالحِلم و حسن الخلق، و حفظ قلوبهم من كل مشوشٍ يُكدّر عليهم حياتهم الطيبة، و نعيمهم العاجل و الآجل.

فتأمل في بعض قصص الأخيار و ما هم عليه من الحياة الطيبة، سواءً كانوا في فقرٍ أو في غنى، أو شدةٍ أو رخاءٍ، و حيث تنقلت بهم الأحوال فإنك تجد الواحد منهم أبسط الناس خلقًا، و أروحهم نفسًا، و أقرهم عينًا، بل تجد من هو في عسارةٍ منهم و فقرٍ راضيًا

قانعًا غير متسخّط على الله وعلى الخلق، و ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم.

لأن السعادة مدارها على راحة القلب وطمأنينته، والأخلاق الفاضلة من أعظم الامور التي تعين على راحة القلب، والسعادة مدارها على راحة القلب، وهذه المسألة جلّاها الشيخ رحمه الله وتوسّع في بيانها في رسالته العظيمة [الوسائل المفيدة في الحياة السعيدة] في تلك الرسالة وضّح وبيّن أنّ السعادة مدارها على راحة القلب، ولهذا يمكن أن يكون –مثل ما ذكر هنا– أن يكون الإنسان في فقر أو في قلّة ذات اليد أو في مرض وهو سعيد، سعادته في راحة قلبه، وراحته في طاعة ربه وإيمانه. { **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** }.

أسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وتوفيقًا، وأن يصلح لنا شأننا كله وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا.

أُذكِّر الجميع مرةً أخرى بحلاوة العيد. نهديها في العيد ليكون العيد سعيدًا بالأخلاق الكريمة الفاضلة التي نسأل الله أن يبارك لنا أجمعين بالخير والبركة والتوفيق والسداد بمنّه وكرمه إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء.

نسأل الله عزّ وجلّ أن يصلح قلوبنا أجمعين، وأن يزكّي نفوسنا، وأن يؤلّف بين قلوبنا، وأن يصلح ذات بيننا، وأن يرزقنا حسن الخلق، وأن يعيذنا من سيئ الأخلاق وذميمها، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا، اللهم متّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوّتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا، ولاتسلّط علينا من لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.